

التصوير الحرفي

رمز جودة الوصف عند ابن خفاجة الأندلسي^١

علي باقر طاهري نيا*

جواد رنجبر**

الملخص

إن ابن خفاجة أديب الأندلس وشاعرها وهو صنوبري الأندلس، وبما أن الشعر إلا أقله راجع إلى الوصف، فهو من أعلام الشعراء؛ إذ كان رأس الشعراء الوصّافين. ودراسة أسباب نجاحه في فن الوصف ورمز جودة الوصف تقدّم للآخرين منهجاً واضحاً قد يتبع. و«التصوير الحرفي» مصطلح وضع ليدل على أدق الأشعار الوصفية وأفضلها وأجودها. وبعبارة أخرى قد يمكن تحويل قصائد الوصف إلى صور مرسومة لكن الأفضل والأجود من هذه القصائد هي التي تكون أقرب من لوحة مرسومة وأسهل في الرسم.

و«التصوير الحرفي رمز جودة الوصف عند ابن خفاجة» مقالة تتناول موضوع الوصف، ثم تذكر عناصر كالعناصر المكونة للوصف، وهي الخيال، والملكة، والشعور، والحوار المفكر؛ كما تذكر ثلاثة عوامل كالعوامل المولدة والمسببة للوصف وهي فطرية الوصف، والطبيعة الساحرة، والحياة اللاهية. وحاولت المقالة كي تقدم دراسة تحليلية عن رمز جودة الوصف عند ابن خفاجة الأندلسي.

المفردات الرئيسية: ابن خفاجة، الشعر، الوصف، التصوير

المقدمة

إن تاريخ الأدب العربي يشتمل على عهود تاريخية أدبية مختلفة، منها الأدب العربي في الأندلس أو عهد الأندلس، وهو عهد طال أمده لأكثر من ثمانية قرون، ووقع موقع الدراسة من قبل الدارسين والباحثين، وانتهت دراسة أغلبية الباحثين إلى أنها طور

١. تاريخ التسلم: ١٣٨٥/١٢/١٥ هـ. ش (٢٠٠٧/٣/٦ م)؛ تاريخ القبول: ١٣٨٦/٤/٢٦ هـ. ش (٢٠٠٧/٧/١٧ م).

* أستاذ مشارك في قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة بو علي سينا في همدان

** ماجستير في اللغة العربية وآدابها

تقليد ومحاكاة للشرق والمشاركة. فهؤلاء يرونه عهداً مستقلاً عن تاريخ الأدب العربي، ومن ثم يثبتون له ميزة التقليد والمحاكاة. هذا وإنه يبدو عضواً لهيكل الأدب العربي؛ فلا يقاس العضو مع الهيكل، بل يحلّ دوره ومكاته. فمن أراد أن يقارن الأدب الأندلسي، فليقارن بينه وبين عهد من عهود الأدب العربي في المغرب حتى يصدر حكماً عادلاً.

إن الأدب العربي في الأندلس يشهد على أن فن الوصف تطور وازدهر أثناء هذا العهد ازدهاراً يثير الإعجاب ويلفت الأنظار. فكم يذكر اسم ابن خفاجة كرائد فن الوصف في الأدب العربي خاصة في الأندلس! وهو الذي نوع فن الوصف وروّجه في الأغراض الشعرية المختلفة.

مهما كان الأمر ومهما اجتمع من الأسباب، فإن ما أنشده ابن خفاجة في فن الوصف احتلّ مكانة مرموقة في الأدب العربي. فمن هنا يستحق الدراسة والتحليل كي ينكشف رمز النجاح وسر الجودة في هذه القصائد.

بناءً على هذا إن هذه الورقة قد تكون وراء دراسة أسباب هذه الجودة والجمال، وبيان أسباب نجاح رأس شعراء الطبيعة الوصّافين. أما الذي قد بدا خلال البحث والدراسة، فهو ظاهرة سمّيت بـ«التصوير الحرفي» كرمز الجودة.

والتصوير الحرفي يعني أن الشاعر قد امتاز بسبب أنه ينشد الشعر، وكأنه يحمل ريشته في مدار الحروف ويرتبه كي يكمل رسماً رائعاً له مواصفات الرسم الفني البديع.

و«التصوير الحرفي» مصطلح لعله يصبح مصطلحاً أدبياً نقدياً بتكراره في مثل هذه الورقة وما شابهها من الدراسات الأدبية، ويقوم مقام الرسم بالكلمات ويجد مكانه من بين المصطلحات الأدبية؛ إذ له دقة في التعبير وإيجاز في الكلام وتلاحم في البيان أكثر من «الرسم بالكلمات».

فهذه الورقة قد عاجلت الموضوع بدراسة حياة ابن خفاجة وأدبه، وأنواع الوصف وعناصره، كي ينتهي إلى نتائج أدبية تدل على سرّ الجودة والجمال في فن الوصف عند ابن خفاجة الأندلسي.

نظرة في حياة ابن خفاجة الأندلسي وأدبه

هو أبو إسحق إبراهيم بن أبي الفتح بن عبدالله خفاجة الهواري الأندلسي. ولد في جزيرة «شقر» من أعمال بلنسية، شرقي الأندلس سنة «٤٥٠ هـ»، وتوفي سنة «٥٣٣ هـ» (ابن خلكان، د.ت، ص ١٤؛ والزركلي، ١٩٧٩م، ص ٥٧). وقيل لبلدته جزيرة لأن نهر شقر يحيط به. وإذا كان لموطن الولادة والنشأة تأثير في تكوين الشخصية، ولا سيما الجانب الذهني منها، فليس لنا أن ننكر أثر «شقر» - مولد ابن خفاجة - في نزعة الأدبية وخياله الشعري. فقد كانت كما وصفها ياقوت أنزه بلاد الله وأكثرها روضة وشجراً وماءً.

إن ابن خفاجة علم من أعلام الشعراء العرب المجددين، وهو بحق شاعر الأندلس و«وصّافها وابن طبيعتها الساحرة» (الخفاجي، ١٩٩٢م، ص ٥٠٣). وقال عنه المقرئ التلمساني (١٩٩٨م): «إنه أديب الأندلس وشاعرها» (ص ٢٣١).

إن الشاعر مخنم؛ إذ أدرك عصري ملوك الطوائف والمرابطين في الأندلس «وإنهما أزهى عصور الأندلس حيث قامت دولة الأدب والشعر، وغصّت مجالس الأمراء بالشعراء» (الخفاجي، ١٩٩٢م، ص ٥٠١).

إن ابن خفاجة قد جربّ عود نفسه في إنشاد الشعر في مختلف الأغراض الشعرية من المدح والعتاب والثناء والشكوى والغزل إلى الوصف. «إنه عاش للفن وابتعد عن السياسة» (فنون الأدب العربي، د.ت، ص ٩٩)، فشغف بدياره وفضّله على الدنيا كلّها، فأقبل

على الطبيعة وعناصرها والتدّ بمشاهدتها ملء العين والقلب حتى سبق القصب في فن الوصف وأبدع فيه تعبيراً وتصويراً، وأدخل وصف الطبيعة في المدح والرثاء ووصف المرأة والخمرة.

لقد امتاز أدب ابن خفاجة أولاً باستقلال فنون وصف الطبيعة. فمن أبرز مواصفات شعر الوصف عند ابن خفاجة هو الإكثار في وصف الطبيعة ومن ثم استقلال فنون وصف الطبيعة. إن ابن خفاجة لم يكتف بوصف الطبيعة كصورة واحدة وكلّ لا يتجزأ، بل أخذ يصف كلاً من مظاهر الطبيعة على حدّها، فمن ثمّ ظهرت النهرية والجلبية والدولابيات والزهرية و.... ثانياً باصطباغ باقي الأغراض الشعرية بفن الوصف. إن الأغراض الشعرية تتنوع تنوع الأسلوب والمضمون وقلما تجتمع الأغراض في قطعة واحدة. هذا وإن ابن خفاجة رغم الالتزام باستقلال الأغراض لم يلتزم هذا بالنسبة إلى فن الوصف، كأنه كان يرى الوصف أوسع من أن يحدد في غرض خاص، بل شاملاً لجميع الأغراض من المدح والفخر والرثاء و.... وبهذا السبب لم يمل عن الوصف في موقف الرثاء والبكاء، ومزج البكاء بوصف رائع يلائم المقتضى، فصور الدموع الجارية على الحدود كال مياه الجارية في الأنهار، وشبهه حال أبدان المحزونين المضطربة بهزة الأغصان، وأنينهم وإجهاشهم بالبكاء بصوت قنبرة نائحة:

في كُـلِّ نادرٍ منك رَوْضُ ثَناءٍ وبكلِّ خدِّ منك جدولُ ماءٍ
ولكلِّ شخصٍ هزّةُ العُصنِ الثُّدي غبُّ البُكاءِ ورئّةُ المِكاءِ

(ابن خفاجة الأندلسي، ١٩٩٤م، ص ١٦)

وأسلوبه يتجمع فيه قوة الخيال وسعته، وسلاسة العبارة مع ميله أحياناً إلى الألفاظ الغريبة وإلى المعاني الخفية وإلى شيء من التكلف. وكان يعنى بالموضوع الذي يصوره وينظر إليه نظرة فاحصة تساعده على دقة التعبير عن معانيه، حتى سمي بشاعر شرقي الأندلس، كما سمي بالشاعر البستاني، ولقّبهُ المقرّي التلمساني (١٩٩٨م) بـ«صنوبري الأندلس» (ص ٣٤٢)، لشدة اعتناؤه بوصف الطبيعة.

الوصف وأنواعه

اختلف الأدباء في تحديد فن الوصف وتعريفه تعريفاً جامعاً للأوصاف ومانعاً للأخبار، مع أن الكثيرين يرون أن الوصف إلى جانب الغزل والفخر والمدح و... فن من الفنون الشعرية له أسلوبه وتعايره ومواصفاته، لكن هناك من قارن بين الوصف والفنون البيانية من الاستعارة والتشبيه والكناية كأنه من قبيلها.

يشير ابن رشيق القيرواني (٢٠٠٢م) إلى الفرق بين الوصف والتشبيه قائلاً: «الفرق بينهما أن الوصف إخبار عن حقيقة الشيء، وأن التشبيه مجاز وتمثيل» (ص ٤٣٩). وبهذه جعل القيرواني الوصف كطريق من طرق إلقاء المعنى الواحد لا فناً شعرياً يستخدم هذه الطرق البيانية. ثم جاء غازي طليمات (د.ت)، وأثبت هذا الرأي للقديما وقال: «نظر الأقدمون في الوصف فوجدوه يستخدم فنون البيان كالتشبيه والاستعارة والكناية، ففرّقوا بين الوصف والأدوات الفنية التي يستخدمها الشاعر» (ص ٦٤).

مهما كان الأمر، فكاد الأدباء أن يتفقوا على أن الوصف فن وغرض شعري، وهو «إنشاء» يراد به إعطاء صورة ذهنية عن مشهد أو شخص أو إحساس أو زمان للقارئ أو المستمع، وفي العمل الأدبي يخلق الوصف البيئة التي تجري فيها أحداث القصص (مجدي، والمهندس، ١٩٨٤م، ص ٤٣٢).

أضف إلى هذه الرؤية المحددة لإطار الوصف ودلالته أن هناك من وسَّع دائرة الوصف بحيث يشمل فنوناً شعرية متنوعة. فالوصف - على هذا الأساس - إن كان للحبيب وأوصافه فهو «الغزل»، وإن كان للممدوح وفضائله فهو «المدح»، وإن كان للمهجوِّ وقبائحِه فهو «الهجاء»، وإن كان للنفس ومفاخرها فهو «الفخر»، وإن كان للصيد وأحواله فهو «الطرد»، وإن كان للطبيعة وعناصرها فهو «الوصف» المطلق. فبيت القصيد «أن الشعر إلا أقله راجع إلى الوصف» (القيرواني، ٢٠٠٢م، ص ٤٣٩).

وهذا تعريف رآه صاحب معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب خير تعريف للمصطلح، لكن لا يسعنا أن نشير إلى كلمة «إنشاء» في مطلع التعريف، حيث يذكرنا نوعي الأدب وهما الأدب الوصفي والأدب الإنشائي؛ والأول يشمل تاريخ الأدب والنقد الأدبي وما إلى ذلك، والثاني يشمل الشعر والرسائل الأدبية وما يشبههما. أما العبرة في أن صاحب المعجم قد جعل الوصف من قبيل الإنشاء حيث قال بأن الوصف هو الإنشاء، مع أنه قسمه المنطقي؛ حيث الأدب إما إنشائي وإما وصفي، والوصف الذي يقع قسيم الإنشاء يختلف عن الوصف الذي يكون قسماً منه.

والذي يبدو لنا كحلٍّ للمشكلة أننا نرى فن الوصف من قبيل الأدب الوصفي حيث له صورة حقيقية في الخارج؛ فليس الإنشاء من لا شيء، بل محاكاة لشيء في الخارج. ثم نراه من قبيل الأدب الإنشائي؛ إذ الشاعر خالق ومنشئ بقوة الخيال والموهبة. وقيل: «إن الوصف انطباع المشهد المحسوس في النفس، وهو تمثله وتخيُّله والانفعال والتأثر به» (شامي، ١٩٩٤م، ص ٥).

ينقسم الوصف على أساس المستوى إلى ثلاثة أنواع وهي: «الوصف النقلي»، و«الوصف المادي»، و«الوصف الوجداني». أما الأول فهو المرحلة الأولى من مراحل الوصف حيث يتنازع الشاعر الظاهرة ليفيض عليها في حيز الألفاظ والصور، وهو ما يسمى «الوصف للوصف» (الحاوي، ١٩٩٨م، ص ٩)، كما يطلق عليه «الوصف الكلاسيكي». وأشعار الجاهليين حافلة بهذا الوصف؛ نحو قول ابن خفاجة (١٩٩٤م) في وصف القوس وهو آلة رمي النبل:

عوجاءُ تُعطفُ ثم تُرسلُ تارةً
فكأنما هي حيَّةٌ تُنسبُ
وإذا انحنت والسهمُ منها خارجٌ
فهي الهلالُ انقضَّ منه شهابٌ

(ص ٣٤)

والقوس عند جذبها لرمي السهم تكون نصف دائرة، فشبها عند ذلك بالحية عند انطوائها، والهلال قبل استكمال استدارته. انظروا، كيف أحسن تشبيه النبل عند خروجه من القوس حال انطوائها بالشهاب انقضَّ من الهلال!

أما الوصف المادي ف«هو الذي لا يقارن فيه بين مشهد وآخر، بل بين فكرة أو حالة نفسية من جهة ومشهد حسي أو صورة مادية من جهة أخرى؛ والصورة في هذا النوع من الوصف تستقيم على وحدة التأثير النفسي بين فكرة في الذهن والحواس» (الحاوي، ١٩٩٨م، ص ٩). فالوصف المادي انتقال من المعنوية إلى المادية؛ نحو قول ابن خفاجة (١٩٩٤م) واصفاً الأرق:

أبي البرقُ إلا أن يحنَّ فؤادٌ
ويكحلَّ أجفانَ المحبِّ سهادٌ

(ص ٧٩)

فشبَّه الشاعر الأرق - وهو فكرة - بالكحل الذي هو شيء مادي حسي.

أما الوصف الوجداني ف«هو الذي يتخطى حدود الظاهرة ويُنبط بها مفهوماً شعرياً جديداً هو امتداد من المفهوم العام أو تأويل له وهنا تغدو الظاهرة شبيهة برمزم» (الحاوي، ١٩٩٨م، ص ١٢)، وفيه يعبر الشاعر عن ذاته من خلال المشهد، فهو تصوير على حدقة الخيال وشاشة الضمير (السابق).

فشاعر الوصف الوجداني يعبر عن ذاته ويعطي الطبيعة الجامدة الحركة والحياة والنشاط. فالوجود عنده كائن حي له مواصفات الحياة من الضحك والنطق والألم والفرح والطرب و...؛ نحو قول ابن خفاجة (١٩٩٤م) واصفاً حسد السماء:

ألا يا حبذا ضحك الحمياً
وأدهم من جياذ الماء مهراً
إذا بدت الكواكب فيه غرقى
باحتها، وقد عبس المساء
تنازع جله ريح رخاء
رأيت الأرض تحسدها السماء

(ص ١٣)

نظر الشاعر إلى السماء فتأثر برؤيتها واثنتى لوصفها، فهو لم يعبر خلاله عما رآه فحسب، بل عبر مما رآه إلى ما شعر به. فالضحك والعبس هما من ذات الشاعر، والحسد اندمج في نفس السماء التي تحسد الأرض.

أما الفرق بين الوصف النقلي والوصف الوجداني فهو:

أن الأول بمدقته يراقب الأشياء، ويقدر ما يبصره من شكلها وأوصافها تقديراً شائعاً علمياً، والثاني ينصرف إلى تأويل الظاهرة. ثم إن فضيلة الوصف النقلي هي في دقته وصحة تشابيهه، بينما تبدو فضيلة الوصف الوجداني في نزعته الداخلية وتوغله في ذات الشاعر وذات الأشياء. فالأول يعنى بتجسيد الشكل، والثاني بالمعنى وراءه (عيد، ٢٠٠٦م، ص ٨٣٩).

عناصر الوصف عند ابن خفاجة الأندلسي

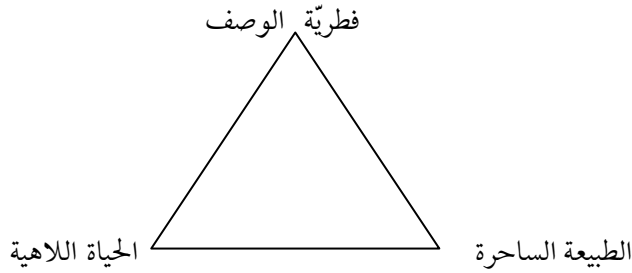
الف) العناصر المولدة

قبل أن أتناول تحليل عناصر الوصف، لا بد أن أشير إلى أهم مصدر إلهام أوحى إلى الشعراء الأندلسيين موهبة الوصف، وجعلهم متميزين في هذا الفن الشعري. نعم، إن الطبيعة الأندلسية هي مصدر الإلهام والإيحاء. «كان للطبيعة الساحرة أثرها الكبير في خصب عقول الأندلسيين ورفاهية حسّهم ورقّة تصويرهم وسعة خيالهم. فالطبيعة الأندلسية هي المعلم الأول الذي ألهم شعراء هذه الصور البديعة» (سلامة، ١٩٨٩م، ص ٨٩). فللطبيعة أثرها في الأخلاق والتذوق والمهارة حيث «المرء مسوق بحكم طبعه إلى التكيف بالبيئة وعواملها» (الحاوي، ١٩٩٨م، ص ٢٢٥). ومظاهر الطبيعة الأندلسية تثير تلطف الأذواق وتؤدي إلى التلذذ بمظاهر الجمال ومباهجه وصفاته، مع أن للطبيعة دوراً رئيسياً في ازدهار فن الوصف في الأندلس، لكنها لم تكن هي السبب الوحيد في هذا المجال. فإن هناك أسباباً تتسبب عن هذا الازدهار والتطور، وولدت قصائد وصف معجبة رائعة.

فكلمة السرّ في سبب شيوع فن الوصف في الأندلس وازدهاره وتطوره تبدو في وجود مثلث كامل الأضلاع والزوايا. فلو أصبح لأيّ مكان وفي أيّ زمان هذا المثلث المولد للوصف، لكان في مرتبة الأندلس في وصفه المتطور والمزدهر.

أما الأول من الثلاث فهو فطرية الوصف كحب ذاتي يكمن في وجود الإنسان، ويترصد فرصة يلبي نداء ذاته. «يميل الإنسان فطرياً إلى أن يصف ما يثير مشاعره وإذا كان مبدعاً يستطيع أن يقدم وصفه في صورة فنية» (آذرشب، ١٣٨٢هـ. ش، ص ٥٧). أما الثاني من الثلاث فهو الطبيعة الساحرة الفاتنة، وكما ذكرنا آنفاً أنه هو المعلم الأول الذي يوحى الشعراء موهبة الوصف ويلهمهم كيفية خلق الصور المعجبة الفاتنة. والثالث هو الحياة اللاهية. وهذه هي الثالثة للأثافي التي تكمل مثلث فطرية الوصف والطبيعة الساحرة بحياته اللاهية. «لقد عكف الشاعر الأندلسي يصوّر الحب واللهو والخمر في إطار الطبيعة مقدماً لنا لوحات رسم فيها الأصباغ والألوان» (سلامة، ١٩٨٩م، ص ٨٩؛ والخفاجي، ١٩٩٢م، ص ١٣١).

إذن هذا هو المثلث الوصفي :



فما نراه من وصف رائع معجب في شعر ابن خفاجة ليس إلا مولوداً لاجتماع الأسباب الثلاثة التي كوَّنت مثلثاً في عهد ابن خفاجة الأندلسي وذاته. فكلما لم يكمل المثلث في عصرٍ ومصرٍ لا يزدهر فن الوصف الشعري بل يشكو فقد أرضية لازمة للتطور والازدهار.

ب) العناصر المكونة للوصف المعجب

فلو وجد المثلث الوصفي سيكون الصور الوصفية الممتازة عند وجود مربع العناصر الذي يساعد الشاعر في خلق الرسم والصور الفنية المثيرة والمؤثرة.

فالعناصر المكونة للوصف هي :

عنصر الشعور، «وهو المحرك الأول للوصف الوجداني» (عيد، ٢٠٠٦م، ص ٨٢٨)؛ فهذا عنصر يذكرنا بتسمية الشاعر بالشاعر؛ إذ بشعوره يشعر ما لا يشعره غيره؛ فمشاعره أقوى، وتأثره أشد من غيره، تذيبه حرارة غموم الآخرين ويفرحه سرورهم. وابن خفاجة الشاعر الوصّاف لا يكتفي بالمشاهد الخارجية، بل يعبر منها إلى البواطن والروح، فيرى بقلبه ويشعر بشعوره فيصور ما رآه القلب والمشاعر.

وعنصر الخيال، وهو العنصر الذي يفصل بين النظم والشعر كما يفصل بين النثر والشعر. و«الخيال هو الغرفة المظلمة التي تحول الظلال الشعرية المموهة إلى صورة ذات شكل وحدود ومعنى فهو يترجم الشعور ويجسده» (عيد، ٢٠٠٦م، ص ٨٣٨). فالشاعر بشعوره يرى ويتراءى له ثم يصور لنا ويجيد ما رآه بقوة الخيال الواسع الذي يتميز به الشعراء المتميزون. فانظروا إلى الشاعر الفارسي كيف يستخدم الخيال والشعور كي يصور لنا حالة «كوز» ساذج قد لا يعجب فاقدي الذوق والموهبة الفنية :

كان هذا الكوز مثلي عاشقاً
وأرى عروته كانت يداً
والها في صدغ ظبي أغيد
طوقت جيد حبيب أجيد

(الخيام، ١٩٨٩م، ص ٩٣)

و«الملكة» (شامي، ١٩٩٤م، ص ٦) في ملاحظة الأشياء، والرؤية النافذة في المشاهد، والتأمل في التفاصيل والحركة والأوصاف. وكما ذكر آنفاً رأينا أن الشاعر إن كان له ملكة وشعور إلى جانب الخيال سيرسم صورة معجبة تكشف عن البواطن والزوايا الكامنة. و«الحوار الواعظ المفكر» (السعيد، ١٩٨٠م، ص ١٢٠)، وهو عنصر ينشئه الشاعر بقوة التشخيص حيث يعطي عناصر الطبيعة الحياة والوجود ويجعل البيئة صدر أمّ حنون أو حضن حبيبة يشعّ بحبة ووفاء.

عنصر الحوار المفكر يعطي الصورة الحركة والحياة ومهما اشتد الميزة، تكثر الحركة وتنشط الحياة؛ نحو قول ابن خفاجة (١٩٩٤م) عندما يصف الجبل يثبت له أوصاف الشيخ الوقور، والرجل المفكر في العواقب، ويرى له النطق رغم الصمت والسكوت، فهو ينطق بلسانه فليعتبر أولي الأبصار والاعتبار :

وقورٍ على ظهرِ الفلاةِ كأنه طوالَ الليالي مُفكرٍ في العواقبِ
أصحتُ إليه وهو أخرسُ صامتٌ فحدثني ليلُ السُرى بالعجائبِ

(ص ٤٨)

ثم يتكلم على لسانه ويحيي ذكرياته من كونه ملجأً وموطناً ومعبراً ومظلاً، وشكواه من لطم الرياح وزحمة البحار:

وقال ألا كم كنتُ ملجأً فاتكٍ وموطنَ أوأهٍ تبثُّلُ تائبٍ
وكم مرّ بي من مُدليجٍ ومؤوَّبٍ وقال بظلي من مطيٍّ ومركبٍ

(السابق)

إن الجبل في صورة ابن خفاجة يئنّ ويبكي مما يصيبه دائماً من ظعن الأصحاب وتوديعهم، وسهر الليالي ومراعاة الكواكب:

ولاطمَ من نُكَبِ الرِّياحِ معاطفي وزاحمَ من حُضْرِ البحارِ غواربي
فما كان إلا أن طوتهم يدُ الردى وطارت بهم ريحُ التوى والنوائبِ
فحتى متى أبقي ويطعنُ صاحبُ أودعُ منه راحلاً غيرَ أيِّبِ؟
وحتى متى أرعى الكواكبُ ساهراً فمن طالعٍ، أخرى الليالي وغاربِ؟

(السابق)

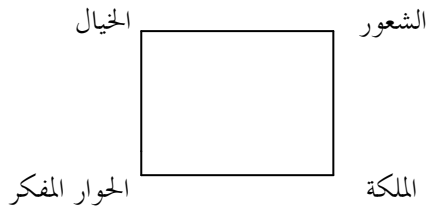
إنه يترحم مولاه متضرعاً ويمدّ إليه يد العون والعناية، ثم يتلقى عبرة يعبر عنها التجارب بلسانها، وأخيراً ينهي القصيدة بقوله «إنا من مقيم وذاهب»، ويعترف بأن القدر والمصيرة يسببان عن إقامة البعض وذهاب البعض:

فرحماك يا مولاي، دعوة ضارع يمدُّ إلى نُعماك راحةً راغبِ
فأسمعني من وعظه كلُّ عبرة يُترجمها عنه لسانُ التجاربِ
فسلى بما أبكى، وسرى بما شجا وكان على عهدِ السُرى خيرَ صاحبِ
وقلّت وقد نكبتُ عنه لطيّة سلامٌ، فإننا من مُقيمٍ وذاهبِ

(السابق)

وعنصر الطبيعة هو المكوّن للتجارب الشعرية. لكل أحد تجارب في حياته، فلكل شاعر تجارب تختص به. التجربة الشعرية تمتاز بالدقة والشعور والعاطفة وتكون وراء التأثير خلافاً للتجربة غير الشعرية التي تكون ساذجة بسيطة. فالطبيعة بعناصرها المختلفة من أهم عناصر الوصف في الأدب الأندلسي. «الطبيعة كائن حي يحبها الشاعر وتحميه، يناجيه وتناجيه. بصحبتها تطيب الساعات، وبأفائها تحلو رقائق العيش» (الحاوي، ١٩٩٨م، ص ٣٦).

فهذا مربع العناصر المولدة للصور الفنية الشعرية المؤثرة والمثيرة:



أحسن الأوصاف وأفضلها

بناءً على ما جاء في المثلث الوصفي ومربع العناصر من الطبيعي أن نبحت عن معايير تدلنا على أحسن الأوصاف وأجملها. يقول ابن رشيق القيرواني (٢٠٠٢م): «أحسن الوصف ما نعت به الشيء حتى يكاد يمثله عياناً للسامع» (ص ٤٤٠). ورأى قدامة بن جعفر (د.ت): إن الوصف إنما ذكر الشيء بما فيه من الأحوال والهيئات، ولما كان أكثر وصف الشعراء إنما يقع على الأشياء المركبة من ضروب المعاني كان أحسنهم وصفاً من أتى في شعره أكثر المعاني التي الموصوف بها مركب فيها، ثم بأظهرها فيه وأولاها به حتى يحكيه ويمثله للحس بنعته (ص ١٣٠).

ورأى يحيى شامي (١٩٩٤م) أن أفضل الوصف «ما كان إيمائياً يسمو به صاحبه عن الواقع المادي المحسوس المنقول دون أن يفرق في الابتعاد الكلي عن حقيقة الشيء ليقع في اللاشيء» (ص ٥)؛ لكن الذي خير الكلام لقلته ودلالته هو «أبلغ الوصف ما قلب السمع بصراً» (القيرواني، ٢٠٠٢م، ص ٤٤٠)؛ وإذا كان أبلغ الوصف ما قلب السمع بصراً فأحسن الوصف وأجمله ما قلب القصيدة إلى لوحة رسم. فابن خفاجة الأندلسي لنجاحه في تقليد السمع بصراً، أصبح رأس الشعراء الوصّافين في الأدب الأندلسي والشرقي معاً؛ فهو رسّام يغمس ريشته في حبر عناصر الطبيعة ويشبه ما يرى ويصوره؛ فالقصيدة هي اللوحة، والقلم هو الريشة، والحروف والكلمات هي الأجزاء والألوان والأطلال. قارنوا بين الأبيات التالية والصورة المرسومة إلى جانبها كي يبدو مستوى المشابهة بين الرسم والتصوير الحرفي الذي يمثل خير أنموذج للوصف الشعري:



أشهى وروداً من لمى الحسناء
والزهرُ يكنفه مجرّ سماء
من فضّة في بردوّ خضراء

لله نهرٌ سأل في بطحاء
متعطّف مثل السوار كأنه
قد رقّ حتى ظنّ قرصاً مُفرغاً

(ابن خفاجة الأندلسي، ١٩٩٤م، ص ١٢)

فالصورة المرسومة تصوّر لنا البيت الثاني في جانبها الأيسر، والبيت الثالث في جانبها الأيمن.



وغدت تحفُّ به الغصونُ كأنها هُدبٌ يُحفُّ بِمَقْلَةٍ زرقاءِ
والريحُ تعبَّثُ بالغصونِ وقد جرى ذهبُ الأصيلِ على لُجَيْنِ الماءِ

(السابق)

«إنما الشعر صناعة من النسيج، وضرب من التصوير» (الجاحظ، ١٩٨٨م، ص ١٣١)، ولكنه يمتاز في جوانب منها بأن الشاعر قد يذكر الكلام ويعبر عن أحاسيسه وإعجابه خلافاً للراسم الذي يرسم ولا يصرِّح بالكلام والأحاسيس. أضف إلى ذلك أن التصوير الحرفي قد يحدث باستقلالية الأبيات دون القصيدة بحيث يرى القارئ كلاً من الأبيات رسماً واحداً مستقلاً. أخيراً قد جعلنا صورة حرفية إلى جانب صورة مرسومة كي تسهل المقارنة للمخاطب؛ فليدقق النظر ويرسل النظر إلى دقائق الصورتين: الصورة الحرفية والصورة الرسمية.

النتيجة

- ١ - أرضية ظهور فن الوصف وشيوعه وازدهاره تبتني على وجود المثلث المولد للوصف المعجب أعني فطرية الوصف، والطبيعة الخلابة الساحرة، والحياة اللاهية.
- ٢ - عناصر الوصف أربعة تشكل مربعاً مكوناً للصور الفنية الشعرية أعني الخيال، والشعور، والملكة، والحوار المفكر.
- ٣ - خير أنموذج لأفضل وصف شعري هو الذي يمكن أن يطلق عليه بالتصوير الحرفي؛ إذ يسهل تحويله إلى لوحة رسم لها دقة وجمال، وهو الذي امتاز به الشاعر الأندلسي الوصَّاف، ابن خفاجة الأندلسي.

المصادر والمراجع

١. آذرشب، محمدعلي. (١٣٨٢هـ. ش). تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي. تهران: سمت.

٢. ابن خفاجة الأندلسي، إبراهيم بن أبي الفتح. (١٩٩٤ م). **ديوان ابن خفاجة** (شرحه وضبط نصوصه وقدم له عمر فاروق الطباع). بيروت: دار القلم.
٣. ابن خلكان، أحمد بن محمد. (د.ت). **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان** (تحقيق إحسان عباس). (ج ١). بيروت: دار الثقافة.
٤. الجاحظ، عمرو بن بحر. (١٩٨٨ م)، **الحيوان** (تحقيق محمد عبدالسلام هارون). (ج ٣). بيروت: دار اليقظة العربية.
٥. الحاوي، إيليا سليم. (١٩٩٨ م). **فن الوصف وتطوره في الأدب العربي** (ط ٢). بيروت: دار الكتاب اللبناني.
٦. الخفاجي، محمد بالمنعم. (١٩٩٢ م). **في الأدب الأندلسي: التطور والتجديد**. بيروت: دار الجيل.
٧. الخيام، عمر بن إبراهيم. (١٩٨٩ م). **رباعيات** (تعريب أحمد الصافي النجفي). بيروت: مؤسسة البلاغ.
٨. الزركلي، خيرالدين. (١٩٧٩ م). **الأعلام** (ج ١). بيروت: دار العلم للملايين.
٩. السعيد، محمد مجيد. (١٩٨٠ م). **الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس**. بغداد: وزارة الثقافة والإعلام.
١٠. سلامة، محمدعلي. (١٩٨٩ م). **الأدب العربي في الأندلس: تطوره وموضوعاته وأشهر أعلامه**. بيروت: الدار العربية للموسوعات.
١١. شامي، يحيى. (١٩٩٤ م). **أروع ما قيل في الوصف**. بيروت: دار الفكر العربي.
١٢. طليمات، غازي؛ والأشقر، عرفان. (د.ت). **الأدب الجاهلي: قضاياها وأغراضه وأعلامه وفنونه**. حمص: دار الإرشاد.
١٣. عيد، يوسف. (٢٠٠٦ م). **دفاتر أندلسية في الشعر والنثر والنقد والحضارة والأعلام**. بيروت: المؤسسة الحديثة للكتاب.
١٤. **فنون الأدب العربي: الفن الغنائي الوصف** (يشترك في وضع هذه المجموعة لجنة من أدباء الأقطار العربية). (د.ت). القاهرة: دار المعارف بمصر.
١٥. قدامة بن جعفر. (د.ت). **نقد الشعر** (تحقيق وتعليق محمد بالمنعم الخفاجي). بيروت: دار الكتب العلمية.
١٦. القيرواني، الحسن بن رشيق. (٢٠٠٢ م). **العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده** (قدم له وشرحه وفهرسه صلاح الدين الهواري). بيروت: دار ومكتبة الهلال.
١٧. مجدي، وهبة؛ والمهندس، كامل. (١٩٨٤ م). **معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب** (ط ٢). بيروت: مكتبة لبنان.
١٨. المقرئ التلمساني، أحمد بن محمد. (١٩٩٨ م). **نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب** (تحقيق يوسف الشيخ محمد البقاعي). بيروت: دار الفكر.